obeikandi.com

العراق ١٩٧٢ - ١٩٧٥

العمل السري يجب ألا يختلط مع العمل التبشيري

وصل ذراع وكالة المخابرات المركزية الطويل إلى بلاد ما بين النهرين العريقة، وإلى الشعب الكردي في جبال زاغروس وجبال طوروس، ولكن بضعة عقود من السنين فاصلة عن حياة الرحَّل، انضمت إلى قائمة عملاء الوكالة.

في شهر أيار (مايو) ١٩٧٢، ذهب الرئيس ريتشارد نيكسون ومستشاره لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر إلى الاتحاد السوفييتي للاجتماع مع نظيريهما الروسيين. بعد ذلك قال كيسنجر في مؤتمر صحفي عقده في موسكو إن الدولتين اتفقتا على إزالة التوترات في الشرق الأوسط «والمساهمة قدر الإمكان في إيجاد تسوية عامة، إن تسوية كهذه من شأنها أن تسهم في التخفيف من سباق التسلح في المنطقة». وأضاف «إنني أتكلم باسم الجانب الأميركي فأستطيع أن أقول: إننا سنحاول أن نطبق هذه المبادئ بالروح التي صيغت بها»(١).

ظل كيسنجر ونيكسون متأثرَين بهذه الروح ربما لمدة أربع وعشرين ساعة. وفي طريق عودتهما إلى بلدهما توقفا في طهران لزيارة صديقهما شاه إيران. ويبدو أن إيران والعراق كانا مرة أخرى مشتبكين في خصومتهما الدائمة - نزاع على الحدود وما شابه ذلك - وقد طلب الشاه من ريتشارد معروفاً صغيراً. سأله هل يستطيع أن يساعد في تسليح الأكراد في العراق الذين يقاتلون من أجل الحصول على الحكم الذاتي؟ هل يمكن مجرد تسخين الأمور بصورة عامة بحيث يتم امتصاص الإمكانات العراقية وإبعادها عن إيران؟(٢).

قال (ريتشارد ميلهاوس Richard Milhous)، «قبل أسبوعين من سرقة ووتر-غيت وبينما كان لا يزال عند القمة في العالم، نقدم أي شيء لصديق وحليف وفيٍّ».

لقد كان بإمكان الشاه تماماً أن يسلح هو الأكراد، والواقع أنه كان يفعل ذلك إلى حد ما، ولكن الأكراد لم يثقوا به. وضعوا ثقتهم في الولايات المتحدة ورغبوا في أن تكون هي مصدر تسليحهم. بعد ذلك بسنوات عديدة وضعت إحدى لجان الكونغرس المعروفة باسم لجنة (بايك Pike) والتي أجرت تحقيقاً في عدة عمليات من عمليات وكالة المخابرات المركزية، الأمور على النحو التالي: «إن الولايات المتحدة عملت في الواقع كضامن لعدم تخلي الشاه عنهم نهائياً»[٣].

لم يمر وقت طويل حتى كانت وكالة المخابرات المركزية تدخل إلى مستودعاتها بحيث أخذت سلسلة من الأسلحة الصغيرة والبنادق السوفييتية والصينية والملايين من قطع الذخائر طريقها إلى المتمردين الأكراد، وكان المصدر الشيوعي للأسلحة هو الوسيلة المعتادة لضمان «الإنكار الذي يصدَّق». في نهاية الأمر وصلت قيمة المساعدة العسكرية إلى نحو ١٦ مليون دولار.

الأكراد هم جماعة اثنية متميزة، إنهم مسلمون ولكنهم، خلافاً لمعظم العراقيين الآخرين ليسوا عرباً. والشعب الكردي موجود بصورة رئيسية في تركيا وإيران والعراق وسورية. وعلى مدى عقود من السنين انخرط أكراد العراق في حرب متقطعة ضد الحكومة سعياً وراء هدف «الحكم الذاتي»، والحكم الذاتي مفهوم ليس محدداً تحديداً دقيقاً من قبَلهم، وربما كان واضحاً فقط أنه كان دون إقامة دولة مستقلة.

إن التاريخ السياسي لأكراد العراق في ماضيهم القريب كان قطعة محيِّرة من صورة مختلطة الألوان. فقبل عشر سنين أقاموا تحالفاً وثيقاً مع الحزب الشيوعي العراقي، بحيث أنه عندما بدأ حزب البعث الحاكم يضطهد الشيوعيين أخذ هؤلاء يلجؤون إلى مناطق الأكراد.

كان الزعيم الكردي، مصطفى البرزاني، في السبعينيات من عمره، وقد أمضى ١٢ عاماً في الاتحاد السوفييتي، وكان يتكلم اللغة الروسية. أما حالياً، أي في العام ١٩٧٢ فقد أصبح الشيوعيون حلفاء للبعثيين في محاولة لقمع «العميل الإمبريالي البرزاني»، وأخذت الدعاية الكردية تبرز المساعدة العسكرية السوفييتية للحكومة

العراقية، بما في ذلك ادعاءات بأن الروس كانوا يرسلون قاذفات قنابل ضد الأكراد. وفي الوقت ذاته رسم الأكراد صورة لأنفسهم وكأنهم «ديموقراطيون اجتماعيون» من النوعية الأوروبية وبلغ بهم الأمر حد تقديم طلب للعضوية في منظمة الاشتراكية الدولية[٤]. مع ذلك، قال البرزاني مراراً إنه «لا يثق بأية دولة عظمى» غير الولايات المتحدة، وأكد أنه إذا نجحت قضيته فإن الأكراد سيكونون «مستعدين لأن يصبحوا الولاية الواحدة والخمسين»[٥]. كل هذا فوق الرغبة في إقامة مجتمع إسلامي.

في شهر تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٧٣ عندما وقع الهجوم المفاجئ على إسرائيل في (يوم كيبور Yom Kippur) – ملاحظة المترجم يوم الغفران بالعبرية – وانشغل العراق بصفته حليفاً لمصر وسورية كان الأكراد مستعدين لشن هجوم كبير، بناء على اقتراح من إسرائيل، كان من شأنه ربما أن يكون مفيداً جداً لقضيتهم الخاصة ولتخفيف بعض الضغط عن إسرائيل عن طريق إشغال الجيش العراقي، ولكن كيسنجر رفض السماح للأكراد بالتحرك، وكان قد طلب في ١٦ تشرين الأول (أوكتوبر) من وكالة المخابرات المركزية أن ترسل إليهم برقية نصها التالي: «نحن لا نكرر، أننا لا نعتبر أن من مصلحتكم الإقدام على الأعمال العسكرية الهجومية التي اقترحتها عليكم إسرائيل»، وقد أطاع الأكراد[٦].

اعتبر تقرير لجنة بايك هذا الحادث مثالاً لسياسة جلية هي سياسة «لا رابح» اتبعتها الولايات المتحدة وإيران. فقد ذكرت اللجنة:

إن وضع الأكراد المستمر في التدهور يعكس حقيقة أن ما من دولة من الدول التي كانت تمدهم بالمساعدة كانت راغبة رغبة جدية في أن يحققوا هدفهم في إقامة ولاية ذات حكم ذاتي. فقد عرضت مذكرة أعدتها وكالة المخابرات المركزية بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) ١٩٧٤ موقفي إيران والولايات المتحدة بوضوح. جاء في المذكرة: إننا نود أن نرى أن إيران لا تنظر بتعاطف إلى إقامة حكومة رسمية ذات حكم ذاتي. فإيران، شأنها شأننا، وجدت فائدة في وضع متأزم.. يضعف فيه العراق ذاتياً نتيجة لرفض الأكراد التخلي عن حكمهم الذاتي، ولا تكون إيران ولا نحن راغبين في إيجاد حل للمسألة بطريقة أو أخرى» [٧].

جاء في التقرير: «لم نطلع عملاءنا على هذه السياسة، بل شجعناهم على مواصلة القتال. وحتى في سياق العمل السري، كان مشروعنا مشروعاً حقيقياً»(٨).

في اليوم التالي لمذكرة وكالة المخابرات المركزية المذكورة أعلاه، ٢٣ آذار (مارس) ١٩٧٤، وصل وزير الدفاع السوفييتي (آندريه غريشكو Andrei Grechko)، الذي صادق البرزاني خلال إقامته في الاتحاد السوفييتي، إلى العراق لمساعدة الحكومة في التوصل إلى تسوية مع الأكراد. ولكن البرزاني، بناء على نصيحة من إيران والولايات المتحدة، رفض القبول بأية شروط(٩) وفي وقت سابق من ذلك الشهر كانت الحكومة العراقية قد أصدرت قانوناً يعرض على الأكراد قدراً محدوداً من الحكم الذاتي، ولكنهم رفضوه أيضاً، ولا نعرف هل فعلوا ذلك بناء على طلب «حلفائهم» أم لا.

اكتشفت لجنة الكونغرس أن «وكالة المخابرات المركزية كانت عندها معلومات أوحت لها أن الشاه سيتخلى عن الأكراد في لحظة توصله إلى اتفاق مع العراق بشأن الخلافات على الحدود». لقد وصفت الوكالة وجهة نظر الشاه في الأكراد أنهم «ورقة للعب بها» في هذا الخلاف مع العراق. ووصفت مذكرة صادرة عن وكالة المخابرات المركزية الأكراد بأنهم «أداة مفيدة بشكل فريد لإضعاف قدرة العراق على المغامرات الدولية»(١٠).

لعل الوصف الأخير كان إشارة إلى توقيع العراق معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتي في نيسان (أبريل) ١٩٧٢، حصل بموجبها على مساعدة عسكرية ومنح الأسطول السوفييتي امتيازات معينة في مرافئه. بعد ذلك، أي في شهر حزيران (يونيو) أمم العراق الفاحش الثراء في النفط الكونسورتيوم الذي يملكه الغرب، أي شركة نفط العراق (٧٥.٢٣ منها للولايات المتحدة) كخطوة أشاد بها السوفييت بحرارة، وبعد هذه الخطوة انطلق البلدان نحو عقد اتفاقية تجارية واقتصادية(١١).

obeikandi.com

الذي حدث، هو أن النفط هو الذي جمع بين إيران والعراق. أراد الشاه في عام ١٩٧٣ أن يعزز وضع إيران في علاقتها مع منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك)، وكان جزء حاسم من خطة استمالة العراق والبلدان العربية الأخرى المجاورة هو استعداد إيران للغدر بالأكراد المزعجين[١٢]. ولم يكن أي من هذه البلدان يريد أن تستخلص الأقليات لديها أية أفكار من نجاح يحرزه الأكراد.

لم يكن الشاه مستعداً لاتخاذ خطوته حتى شهر آذار (مارس) ١٩٧٥. كان تحرك الأحداث سريعاً. اجتمع الشاه مع نائب رئيس جمهورية العراق، وبموجب اتفاق بينهما، قطع الشاه كل المؤن عن الأكراد، ومن ضمنها الجزء الأمريكي. في اليوم التالي شن العراقيون هجومهم الأكبر. بعد ذلك بأيام أرسل الأكراد المذهولون رسالة استغاثة إلى وكالة المخابرات المركزية قالوا فيها: «هنالك ارتباك وقنوط في أوساط شعبنا وقواتنا. مصير شعبنا في خطر غير مسبوق. الدمار التام يحوم فوق رؤوسنا. ليس لدينا تفسير لكل ذلك. نناشدكم ونناشد حكومة الولايات المتحدة التدخل وفقاً لوعودكم..»[١٣].

في اليوم ذاته وجه الأكراد نداء إلى كيسنجر أيضاً:

«معالي الوزير، بما أننا آمنا دائماً بالحل السلمي للخلافات بما فيها الخلافات بين إيران والعراق، يسرنا أن نرى البلدين وقد توصلا إلى اتفاقية ما.. بيد أن قلوبنا تنزف دماً إذ نرى أن إحدى النتائج الفرعية الفورية لاتفاقهما هي تدمير شعبنا الأعزل.. إن حركتنا وشعبنا يجري تدميرهما بطريقة لا يصدقها العقل وبالتزام الجميع الصمت. نشعر مع معاليكم أن على الولايات المتحدة مسؤولية معنوية وسياسية تجاه شعبنا الذي التزم بسياسة بلدكم»[١٤].

لم يتلق الأكراد الذين بلا معين جواباً على ندائهم، لا من وكالة المخابرات المركزية ولا من كيسنجر. مع نهاية الشهر كانت قواتهم قد تقزمت. وقد أُعدم عدة مئات من الزعماء الأكراد.

ختاماً، لاحظ تقرير بايك:

«تمكن أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ لاجئ من الهرب إلى إيران. ولكن بعد وصولهم إلى إيران لم تقدم الولايات المتحدة ولا إيران مساعدة إنسانية كافية. في الواقع، ما لبثت إيران لاحقاً أن أعادت ٤٠,٠٠٠ من اللاجئين ورفضت حكومة الولايات المتحدة أن تسمح حتى للاجئ واحد من المجيء إلى الولايات المتحدة بطريقة اللجوء السياسي مع أنهم كانوا مؤهلين لذلك.

عندما قابل أعضاء لجنة بايك هنري كيسنجر وسألوه عن دور الولايات المتحدة في هذه الميلودراما، أجابهم بعبارته الشهيرة: «يجب عدم الخلط بين العمل السري والعمل التبشيري».

obeikandl.com